بعض عيوبنا الاجتماعية

لحضرة صاحب العزة محمد البابلي بك

مدير مدرسة البوليس والادارة

قد يكون الكلام عن عيوبنا وعن نواحي النقص في عاداتنا وتقاليدنا وأخلاقنا من قبيل الحديث المعاد والقول المبتذل، غير أني لا أرى حرجا من التكرار طالما أننا ما زلنا حيث كنا من تلك العيوب، تراها تتجدد على مشهد منا كل يوم بل كل لحظة، ونلمس ما علق بسببها من أثر ضار بسمعتنا، ونشعر بعقم الجهود التي يبذلها قادة الرأي ودعاة الإصلاح للتخلص منها والقضاء عليها.

ولست أزعم أني محيط بتلك العيوب جميعا ولكني سأحاول أن أتناول بعضها بالقدر الذي يسمح به المقام. مبتدئا بأشدها أذى وأكثرها ذيوعا وانتشارا. ذلك هو ما يسمى بالأثرة أو الأنانية وهو أس العيوب ومصدرها. والانانية في الأصل غريزة حيوانية فطرت عليها كافة المخلوقات المحرومة من نعمة العقل، والمنحطة الحس والادراك، فهي أقوى ما تكون في الوحوش والبهائم والمواشي، وفي الهوام والحشرات، اللهم الا في أنواع قليلة كالنمل والنحل اختصها الخالق سبحانه وتعالى بميزة فضلها بها على غيرها، فعلمها كيف تتعاون وتتضافر في سبيل الخدمة العامة، وأصبحت بفضل هذه الهبة الالهية مضرب المثل في التناصر ودقة النظام. ولعله جل شأنه قد اختارها مثلا للناس ليأخذوا منها القدوة الصالحة في التعاون على البر والتقوى.

والأنانية غريزة بشرية ايضا. فالانسان بفطرته أناني، تراه اذا ما لقي خيرا هرول اليه ليغترف منه لنفسه ما يستطيع اغترافه، ولو كان في ذلك زيادة على حاجته، واغتيال لرزق ابناء جنسه، وحرمان لأهله وعشيرته. وذا ما أوجس شرا أو أحس خطرا وفى مدبرا، غير مفكر إلا في النجاة بنفسه، ولا مكترث لمن يدوسهم في طريقه أو عابئ بمن يتعلقون بأذيالهم من مواطيه الضعفاء مستنجدين مستغيثين. قال الله تعالى: ﴿ خُلِقَ الْإِنسَانُ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾. هكذا خلق الانسان غير أن الله جلت قدرته قد وهب له عقلا يستعين به على تهذيب تلك الغريزة المدمرة ومقاومة فعلها في نفسه، ولذلك ترى الأنانية تفتر وتضعف في الانسان كلما نما عقله، وتشب وتقوى فيه كلما انحطت مداركه وتراها أقوى في الطفل منها في الرجل، وتراها أقوى في الجاهل منها فيمن هذبت نفسه التربية وصقلت

مداركه الثقافة . أرأيت الى صاعد الجبل كلما ارتقى درجة منه اتسع مدى بصره واتسعت دائرة اشرافه فتكشف حوله من الكائنات ومن الخلق ما لم يكن يراه منذ كان فى الدرجات السفلى ؟ كذلك الإنسان فى أطوار حياته كلما ارتقى عقله وسمت مداركه أحس أنه لم يخلق لنفسه وأن لا كيان له إلا بإخوانه وأعوانه وأمته . فالانانية كما ترى تسير فى محاذاة درجة الجهل وانحطاط المدارك ، تزداد بارد يادها وتهبط بهبوطها . غير أنى أقول والأسف ملء جوانحى إن الانانية ما زالت بيننا منبثة سمومها ممتدة جذورها حتى لم تنج من شرها طبقاتنا المثقفة وأقول والألم يحز فى نفسى إن آثارها الضارة ومظاهرها الخبيثة مازالت قائمة كالصخرة الصماء فى سبيل نهضتنا وتقدمنا .

الأنانية هى عدو التعاون الألد ، والتعاون كما تعلمون هو المؤونة التى تشد بنيان الأمة شدا والتى لولاها لانهار ذلك البناء انهيارا . هى عدو التعاون لأنها تحجب عنى الأنانى بغشاء كثيف من صورة شخصه وذاته فلا تبدو له صورة الغير من خلاله إلا شبحا باهتا ضئيلا . الأنانية تطارد روح التعاون لتقضى عليها أينما وجدتها ، تقتل روح التعاون فيما بين الشعب والحكومة فترى الرجل الذى تشربت نفسه بالأنانية يلقى كل عبء فى ميدان الاصلاح على عاتق الحكومة ، ويتزوى كلما طولب بالمساهمة فى مشروع مهما عاد ذلك المشروع على الانسانية بالنفع ومهما جلب للبلاد من خير فلا يكترث له إلا بالقدر الذى يعود عليه هو بالفائدة العاجلة فإن لم يجده كذلك أعرض عنه ونفض يده منه ، أما إذا قضت عليه الظروف أن يساهم فيه فلا يفعل إلا كارها مرغما لا فرق بينه و بين الأغنام تهرع الى العشب لتأكل ثم تنام ولا تجود بضرعها وصوفها الا على غفلة أو قهر منها . حدث فى إحدى بلاد الوجه البحرى أن شب حريق هائل ، التهم ما يقرب من ثلث مساكن البلدة فتألفت فى الحال لجنة من رجال البر لإسعاف المنكوبين ، غير أن هذه اللجنة قضت يومين كاملين فى جدل ومناقشة وخلاف على أى الأعضاء يكون رئيسا وأيهم يكون نائبا للرئيس وأيهم يتولى أمانة الصندوق .

والأنانية تقتل روح التعاون فيما بين أفراد الأمة فى كل ناحية من نواحى حياتهم الاجتماعية . تقتلها فى البيت فترى الزوج الأنانى ينكل عن النهوض بأهم عبء من أعبائه وهو تربية أولاده فيلقيه على زوجه محتجا بانشغاله بعمله خارج البيت بينما الزوجة من جانبها تلقيه على زوجها معتذرة بعملها داخل البيت ، وترى أفراد الأسرة يسعى كل منهم وراء أطماعه وشهواته على حساب تضامن الأسرة وسمعتها فتنحل بذلك رابطة الاسرة ، والأسرة هى الخلية التى يتكون من مجموعها جسم الأمة والتى لا حياة له بغيرها .

والأنانية تقتل روح التعاون فى ميدان المهنة والحرفة فترى صاحب العمل يبذل جهده للإكثار من أرباحه ومكاسبه ولو كان فى ذلك إرهاق أو ظلم لعماله بينما العامل من ناحيته لا يهمه تحسين إنتاج عمله بقدر ما يهمه نيل أجره فتصبح النتيجة خسارا على الاثنين .

والأنانية تقتل روح التعاون حتى فى ميدان الرياضة والتسلية فترى اللاعب الأنانى يحصر همه فى أن يثير استحسان النظارة له و إعجابهم بشخصه ولو أدّى ذلك إلى خسارة فريقه .

والأنانية تقتل روح التعاون حتى بين طوائف الموظفين الحكوميين وهم الذين ما خلقت وظائفهم إلا ليتعاونوا لخدمة المجتمع ، وتضعف فى الموظف روح الشعور بواجبه وتحمله على تغليب مصلحته الشخصية على المصلحة العامة أو الخلط بين الشؤون الفردية والشؤون المصلحية ، فإذا ما أوجده عمله الرسمى فى طريق شخص بينه و بينه خصومة أو نزاع طغت فيه الكراهة الشخصية على روح الواجب فعمد إلى استغلال سلطته لتعطيل مصلحة ذلك الخصم مفرطا فى واجب الأمانة والنزاهة والمساواة بين الناس ، و إذا ما وجه نظره إلى خطأ ارتكبه أو تقصير بدا منه ممن ليس له عليه سلطان الرياسة عز عليه أن يقر بخطئه وأوحت اليه أنانيته الممقوتة أن صون كرامته لا يكون إلا بالتشبث بذلك الخطأ ومحاولة الدفاع عنه ولو من طريق الحجة الزائفة والجدل الكاذب .

ومن مظاهر الأنانية بين طائفة الموظفين ما أسميه "بالدفاع عن الاختصاص" فاذا ما اقتضى عمل من الأعمال تبادل الرأى والمعونة بين مصلحتين أو أكثر فإن كلا من رؤساء تلك المصالح ، بدلا من أن يمدّ يده لزميله مرحبا بمعونته مبتهجا بمساعداته ، ينصب نفسه للذود عما يسميه اعتداء على كرامته أو تدخلا فى اختصاصه كأنما المصلحة التى يرأسها حصن وكلت إليه حمايته من عدو مغير . ولا يلبث العمل أن يتعثر فى العقبة تلو العقبة إلى أن يموت و يدفن شهيدا لهذا النوع الغريب من الدفاع .

وهناك ما اسميه " النزاع على عدم الاختصاص " وأمره أغرب وأعجب . فإذا ما طرأ حادث قد يجر إلى مسئوليات مشتركة فإن كلا من أولئك الرؤساء أنفسهم تلقاه دائب السعى فى التنصل من تلك المسئوليات و إلقاء حملها على زميله .

حدث فى قضية جنائية أن قتل شخص وعثر على جثته ملقاة على حدّ فاصل بين مركزين مختلفين فقام بينهما على الفور نزاع هائل على تحديد موضع الجثة من ذلك الحدّ و بادر كل منهما إلى إحضار الخرائط والقياسين والمساحين توصلا لإثبات أنه غير مختص وغير مسئول عن تلك الجناية ، ثم تطور الأمر إلى نزاع آخر على ما اذا كانت الجثة قد نقلت من مكانها عمدا بقصد تغيير جهة الاختصاص واتسع نطاق البحث والتحقيق فى ذلك النزاع إلى درجة تضاءلت معها قضية القتل ذاتها حتى كاد ينسى القتيل وقاتله .

ومن مظاهر الأنانية ما نشاهده أحيانا من أن الموظف الأنانى الذى قد يكون أراق ماء وجهه فى سبيل الحصول على وظيفته لا يكاد يستقر فى كرسيه حتى يتجه بكل همة الى البحث عن حقوقه المقبلة وعما سوف يحظى به من ترقية أو علاوة فينقب باحثا فى القوانين واللوائح

المالية مستعجلا العلاوات مغاليا فى الطلبات متغلا بالاستثناءات، مناديا بما يسميه العدالة والمساواة ضاربا المثل بمن نالهم حظ الاختيار فسبقوه وهو يكاد فى ذلك كله ينسى أو يتناسى عمله الرسمى وينسى أنه يتقاضى عن هذا العمل أجرا طالما حفيت أقدامه للفوز به وينسى أن القيام بذلك العمل فرض واجب وأمانة مقدسة يجب أن يؤديها وأن يقدم أداءها على كل مطالبة بحق وأن من التفريط فى تلك الأمانة أن يعلق قيامه بهذا الواجب على الحصول على الحق إن كان ثمة حق ، والويل كل الويل لأمة عرفت حقوقها وتناست واجباتها .

ومن مظاهر الأنانيـة الميل للدعاية الشخصية والإعلان عن النفس فترى الرجل الأنانى لا يقبل على اداء واجبه الا اذا أحس أنه موضع الأنظار ومهبط الأنوار، فإن قام به وصادفه الحظ والتوفيق فى أدائه دون بذل مجهود خارق أو تعرض لخطر داهم، راح يطرق الأبواب مستدرا الاستحسان مستجديا عبارات الثناء والإطراء فإن لم يفز ببغيته فترت همته وثبطت عزيمتـه . ولعل أبرز مثل لذلك ما ذكرته إحدى الصحف من أن أحد متطوعى مصلحة الوقاية ذهب اليها معاتبا لأنها لم تنشر عنه كلمة تشيد فيها بما بذل من تضحية فى سبيل الوطن

والأنانيـة تجر الى الغرور لأنها تقوى فى الشخص الأنانى روح الإعجاب بنفسه وتضله أو تعميه عن معرفة عيوبه فلا يراها ولا يحاول أن يلم بها أو أن يصلحها فيصم آذانه عن النقد الذى يصيق به صدره بينما هو يفتحه واسعا لسماع ما يلق اليـه من عبارات الملق والمداهنة والرياء . وكثيرا ما ذهبت مصلحة المجتمع ضحية بريئة لمثل تلك العيوب .

محمد البابلى

الحيـاء

قال النبى صلى الله عليه وسلم : " لكل دين خُلق ، وخلق الإسلام الحياء " .

وعن أمير المؤمنين على بن أبى طالب : "من كساه الحياء ثوبه ، لم يرَ الناس عيبه" .

وقال أديب : " لا يزال الوجه كريما ما بقى حياؤه ، كما لا يزال الغصن رطيبا ما بقى ماؤه " .